المحاضرة الأولى: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

1- جغرافية بلاد المغرب:

كانت كلمة ليبيا أو لوبيا في التَّاريخ القديم تطلق على شمال إفريقيا عدا مصر، أي المنطقة الممتدة غرب مصر حتَّى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وقد أطلق عليها هذه التَّسمية المؤرخ الإغريقي هيرودوت وسمى أهلها باسم الليبيّين تمييزًا لهم عمن جاورهم وراء خط الرمال، وفي الفترة التي سيطر الفينيقيون على هذه البلاد أطلقوا عليها كلمة أفري وعندما جاء الرومان أطلقوا اسم إفريقيا على إقليم تونس وحده ثمَّ عمموه بعد ذلك على القارة كلها وصارت تدعى قارة إفريقيا. كما أطلق الرومان اسم نوميديا على الجزائر حاليًا وما يليها غربًا أطلقوا عليه اسم موريطانيا وهو يشمل المغرب الأقصى وموريطانيا حاليًا. وعندما بدأ المسلمون فتوحاتهم في شمال إفريقيا خالفوا التَّسميات السابقة وأطلقوا على البلاد كلها لفظ المغرب للدلالة على الجزء الغربي من العالم الإسلامي، ثمَّ نعتوا كل إقليم باسم يرجع إلى بعده أو قربه من الشرق، فأطلقوا على إقليم تونس اسم المغرب الأدنى لدنوِّه من الشرق، وسموا إقليم مراكش المغرب الأقصى لبعده عن المشرق، وأطلقوا على إقليم الجزائر اسم المغرب الأوسط لوقوعه بينهما وتوسط بعده عن المشرق الإسلامي. ولشدة ارتباط هذه الأقاليم الثلاثة ببعضها لم تكن هذه الحدود والفواصل طبيعية ولا هي قارة بل دومًا في مد وجزر حسب قوة حكومة كل إقليم أو ضعفها.

2- العناصر السكانيَّة لبلاد المغرب قبل الفتح:

ضمَّ المجتمع المغربي مع بداية الفتوحات الإسلاميَّة ثلاثة عناصر رئيسية هي الأمازيغ سواءً البتر أو البرانس، والبيزنطيون وهم على الديانة المسيحيَّة، والأفارقة.

وقد أطلق الرومان ثمَّ المؤرخين المسلمين بعدهم تسمية البربر على سكان شمال إفريقيا، وهي كلمة هجينة تعبر عن مرحلة بدائية من التَّنظيم الاجتماعي ولا تعني أبدًا معنى الهمجية أو الوحشية، والتَّسميَّة الصحيحة لهم والتي سمو به أنفسهم هي الأمازيغ. أمَّا الأفارقة الذين كانوا أقليةً كانت بأيديهم التجارة وشؤون المال والوظائف المهمة والكبيرة كان ولائهم غالبًا لمن يسيطر على المنطقة ولبثوا حينًا من الدهر على ولاءهم للبيزنطيِّين وعنهم أخذوا المسيحيَّة ومظاهر الحضارة الرومانية، وقد دان بعض هؤلاء بالإسلام فيما بعد وتقلد بعضهم مسؤوليات إدارية وسياسية. وبالنَّسبة للتَّوزيع الجغرافي لهذه القبائل عشية الفتوحات الإسلامية فقد تمركزت القبائل الأمازيغية في المناطق الداخليَّة لبلاد المغرب بينما سيطر البيزنطيون على السواحل، ولما قدم المسلمون اصطدم الفاتحين بالأمازيغ والبيزنطيِّين معًا، وكانت شدة البيزنطيِّين على المسلمين أكثر من الأمازيغ، وقد دخلت أعداد كثيرة منهم في الإسلام تباعًا.

3- أسباب الفتح الإسلامي لبلاد المغرب: هناك أسباب عديدة أهمها:

- تأمين الحدود الغربية للدَّولة الإسلاميَّة الحديثة، حيث دعت الضرورة الحربية والي مصر الصحابي الجليل عمرو بن العاص (رضي الله عنه) إلى التوجه بنظره نحو الحدود الغربية لمصر تحديدًا لإقليم برقة لتأمين قاعدة المسلمين الجديدة بمصر الفسطاط من هجمات البيزنطيين.

- القضاء على أطماع البيزنطيين في استرجاع مصر من أيدي المسلمين، وهذا باستعمال بلاد المغرب منطلقًا لهجماتهم.

- رغبة الفاتحين بقيادة عمرو بن العاص في مواصلة الفتح لنشر الدِّين الإسلامي في بلاد المغرب، ولم يكن إصرار عمرو بن العاص على مواصلة الفتح التماسًا للغنائم التي تعود عليه وعلى جنده من الفتح كما يردد ويزعم المستشرقين ومن يرى رأيهم من المؤرخين.

4- مراحل الفتح: يمكن تقسيم مراحل فتح بلاد المغرب إلى ثلاث مراحل وهي:

1- مرحلة الاستكشاف ومحاولة الفتح (22-50هـ)/(643-650م)

2- مرحلة الاستقرار وبناء القيروان (50-55هـ)/(650-675م)

3- مرحلة التوغل واستكمال الفتح (55-92هـ)/(675-711م)

5- العمليات العسكرية للقادة الفاتحين:

- فتوحات عمرو بن العاص:

لما فتح عمرو بن العاص مصر سنة 20هـ/641م واتخذ من الفسطاط قاعدة لجيوشه، أرسل البعوث والسرايا والطلائع لاستكشاف بلاد المغرب، وللتعرف على سكانها فأرسل أول بعثة بقيادة عقبة بن نافع الفهري الذي رجع إليه بأخبار مشجعة عن المنطقة وسكانها من قبيلة لواتة الأمازيغ، فاتجه عمرو بن العاص بنفسه على رأس جيش ففتح مدينة برقة صلحًا على أساس قبول أهلها اللواتيّين دفع جزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، كما فتح عقبة بن نافع أيضًا مدينة زويلة صلحًا وكان هذا سنة 22هـ/643م، ثمَّ واصل عمرو الفتح بالقرب من الساحل حيث مواطن قبائل هوارة ونفوسة وفزان وزواغة في سرت، وطرابلس وصبراتة وأحرز فيها النجاح.

وعزم عمرو بن العاص على مواصلة الفتح عندما تكتمل عدته ويكثر جنوده، ويستطلع أيضًا رأي الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فكتب إليه يستأذنه في التقدم إلى إفريقية حيث قال "إنَّ الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل"، فكتب إليه الخليفة ينهاه عن مواصلة الفتح وقال له "ما هي بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت".

وعن سبب رفض الخليفة عمر مواصلة الفتح يرجع إلى رغبته في التريث حتى تستقر الأمور ولأن ظروف الدَّولة الإسلامية الناشئة لا تسمح بفتح جبهات كثيرة للقتال مع العدوِّ لقلة جيوش

المسلمين آنذاك، ولأتساع مساحة بلاد المغرب، وطبيعة بلاد المغرب الجغرافية الصعبة، وطبيعة أهلها الذين يرفضون كل أنواع الاستعباد، بالإضافة إلى محاولة الروم في مصر نقض العهد مع المسلمين.

ورغم أنَّ نشاط عمرو في المنطقة لم يشتمل على معارك حاسمة، ولا على سياسة تهدف إلى الاستقرار الفعلي في بلاد المغرب، إلَّا أنَّه لم يغير الشيء الكثير من عقائد السكان ولا من ولاء أغلبهم إلَّا أنَّه قبل عودته إلى مصر ترك عقبة بن نافع في برقة داعيًا ومرشدًا إلى الإسلام، ومتخذًا من برقة قاعدة موالية للمسلمين.

– فتوحات عبد الله بن سعد بن أبي سرح:

في عهد ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري على مصر عام 25هـ/646م استأذن الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) أن يزحف على ما وراء البلاد الليبية في اتجاه إفريقية فأذن له، فأرسل ابن أبي سرح الكثير من الطلائع، بلغ تعداد بعضها عشرة آلاف جندي ولكنها لم تقدر على التوغل في إفريقية لكثرة أهلها، وقد تبين للمسلمين من هذه الطلائع معلومات توضح أنَّ هذا الأمر في حاجة إلى استعداد أكثر.

وفي سنة 27هـ/648م بعث الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بجيش كبير من المدينة لفتح بلاد المغرب وقاده من المدينة إلى مصر الحارث بن الحكم وفيه كثير من الصحابة، فتولى قيادة الجيش والي مصر ابن أبي سرح واتجه به ناحية المغرب الأدنى وانضم إليه جيش عقبة بن نافع الذي كان معسكرًا في برقة فاتجهت الجموع التي بلغت حوالي عشرون ألف مقاتل كلها لمحاربة الروم البيزنطيّين.

وقد تحاشى ابن أبي سرح في حملته هذه الهجوم على مدينة طرابلس التي نقضت العهد مع المسلمين وتحصن أهلها بها، فاتجه إلى مدينة عقوبة وعسكر بها وهي بالقرب من عاصمة جرجير، سبيطلة وهذا للقضاء على ملكهم في إفريقية، فخيره ابن أبي سرح بين قبول الإسلام أو الجزية وعندما رفض المقترحين التحم المسلمون في معركة حامية الوطيس مع الروم البيزنطيّين فنالوا منهم وقتلوا قائدهم

جرجير، حيث قتله الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير، وقتلوا الكثير من جيشه الذي بلغ نحو مئة وعشرون ألف، كما منعوا فلوله من دخول عاصمتهم سبيطلة التي استولى عليها المسلمون.

فاضطر من بقي من الجيش البيزنطي عندما رأوا استبسال المسلمين في القتال إلى طلب الموادعة والمسالمة، واقترحوا على ابن أبي سرح دفع جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة قنطار من الذهب فقبل ابن أبي سرح الصلح وانسحب إلى الفسطاط، بعد أن قضى في هذه الحملة التي كسب فيها المسلمون غنائم وأموال كثيرة أربعة عشر شهرًا، ووصل مصر سنة 28هـ/649م.

وبذلك تقلص نفوذ البيزنطيّين إلى الأطراف الشمالية حيث توجد مدينة قرطاجنة، رغم أنَّ ابن أبي سرح لم يترك واليًا مسلمًا أو حاميةً إسلامية أو يبني قاعدة إسلامية ينطلق منها المسلمون للفتح واكتفى باشتراطه على الروم أن تبقى المناطق التي استولى عليها المسلمون قبل الصلح بأيديهم.

– فتوحات معاوية بن حُديج الكندي:

أسند الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) أمر مواصلة الفتوح في بلاد المغرب إلى معاوية بن حُديج الكندي سنة 40هـ/660م، فغزا إفريقية سنة 43هـ/663م وتمكن من فتح بعض المدن وغنم غنائم عظيمة، ثمَّ نظم غزوة أخرى سنة 45هـ/665م حيث زوده الخليفة معاوية بجيش مكون من عشرة آلاف جندي فيه الكثير من الصحابة والتابعين، وقد ساعدت مجموعة من الظروف على مواصلة الفتح منها سخط أهالي إفريقية من الضرائب الإضافية التي كانت تفرض عليهم من قبل الحاكم الجديد الذي ولاه هرقل على إفريقية، وكذلك ظهور صراع بين هذا الأخير وحاكم إفريقية السابق الذي عينه أهلها بعد مقتل جرجير، والذي التجأ إلى الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان لينجده ضدَّ خصمه، فاغتنم قائد المغرب ابن حُديج الفرصة ونزل بجيش في قمونية التي اتخذها معسكرًا للفتح، ثمَّ بعث إلى جلولاء عبد الملك بن مروان في ألف فارس ففتحها وغنموا ما فيها، وتصدى جيش المسلمين وألحقوا الهزيمة بالجيش الذي بعثه صاحب القسطنطينية في البحر المكون من ثلاثين ألف مقاتل قرب قصر الأجم بإفريقية.

ثمَّ تمكن جيش المسلمين من فتح مدينة سوسة وبنزرت، وغنم غنائم كثيرة وعاد إلى قمونية وعسكر بها، وبذلك بدأت تظهر جليًا فكرة اتخاذ المسلمين لقاعدة ارتكاز تنطلق منها جيوشهم للفتح، وقد تولى تنفيذ الفكرة فيما بعد الفاتح عقبة بن نافع.

– فتوحات عقبة بن نافع الفهري (الولاية الأولى) 50–55هـ/670–675م:

لا شك أنَّ اختيار عقبة بن نافع لقيادة الفتح كان موفقًا على اعتبار أنَّه رجل شارك في الفتوحات منذ بداياتها الأولى كما تولى أمر برقة منذ فتحها المسلمون وكان خير داعية للإسلام، فقد عرفته هذه الأرض منذ أكثر من ربع قرن مجاهدًا ومرابطًا وداعيةً.

وعلى عكس غيره من قادة الفتح فقد سلك عقبة في فتوحاته طريق الصحراء وتجنب الطريق الساحلي الذي سلكه أغلب قادة الفتح، وأصبح لشهرته يُعرف بالطريق الأعظم عند ابن عبد الحكم والجادة عند البكري، فأذعنت لدعوته قبائل لواتة ومزاتة، واستولى على مدينة غدامس وقفصة وتوزر من بلاد الجريد.

ومن أهم أعماله بناء مدينة القيروان سنة 50هـ/670م لتدعيم حركة الفتح ولاستقرار الجند في قاعدة تنطلق منها العمليات العسكرية، وبدأ في بنائها سنة خمسون للهجرة، وقد بنيت في موضع بين الساحل والداخل لكي يأمن من خطر البيزنطيّين في الساحل، ويتقي تحركات القبائل الأمازيغية التي لم تُسلم بعد في المناطق الداخلية.

وقد بيَّن عقبة لأصحابه أهمية وضرورة بناء مدينة القيروان كي يتخذها المسلمون قاعدةً لهم في قوله "إنَّ إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتَّخذوا بها مدينة تكون عزًّا للإسلام إلى آخر الدهر".

– فتوحات أبو المهاجر دينار:

عندما أوشك عقبة بن نافع على الانتهاء من تأسيس القيروان لكي يواصل الفتح ويزيل سلطان الروم من شمال بلاد المغرب، ثمَّ يسير في نشر الإسلام بين الأمازيغ حسب خطته، فوجئ بعزله سنة 55هـ/675م، حيث عزله والي مصر والمغرب الصحابي الجليل مسلمة بن مخلد الأنصاري، وعيَّن مولاه أبو المهاجر دينار واليًا جديدًا على بلاد المغرب.

وقد أساء أبو المهاجر عزل عقبة حيث قام بسجنه وبالغ في إيذائه معنويًا حسب ما يذكر ابن عبد الحكم وابن عذارى، وهجر مدينة القيروان وأخلاها من سكانها، وبنا مدينة جديدة تبعد عنها بميلين وردت بأسماء مختلفة تاكيروان، تاكرونة، تكرور، دكرور وغيرها، وقد شيَّدها وسط بلاد الأمازيغ يقال في جبل وسلات مسكن قبيلة مزاتة الأمازيغية، وبالتعاون مع البربر عمَّر مبانيها وجدَّ في تشيِّيدها.

كما جاء هذا الوالي بسياسة جديدة، حيث قام باستمالة الأمازيغ عن طريق المعاملة الحسنة، وصالح زعيم قبيلة أوربة البرنسيَّة كسيلة بن لمزم، وأحسن إليه وأقنعه للدخول في الإسلام، مع جموع كثيرة من الأمازيغ، فسهَّل له بذلك مواصلة الفتح الإسلامي بالمغرب الأدنى والدخول إلى أرض المغرب الأوسط.

ويعتبر أبو المهاجر دينار أوَّل والي لبلاد المغرب وطئت خيله أرض المغرب الأوسط، فبعد بناءه لمدينته الجديدة تاكيروان في حدود سنة 55هـ/675م والتي اتخذها عاصمةً جديدة لبلاد المغرب بدلًا عن قيروان عقبة، واستمالته للأمازيغ ضدَّ الروم البيزنطيِّين، انطلقت جيوشه منها صوب المغرب الأوسط لمحاولة فتحه.

وتذكر المصادر التَّاريخيَّة حملته على المغرب الأوسط باختصار شديد، حيث يذكر كل من المالكي والدبَّاغ بأنَّه خرج بجيوشه ناحية المغرب الأوسط وفتح كلَّ ما مر به، حتَّى انتهى إلى العيون التي تُسمَّى اليوم عيون أبي المهاجر نحو مدينة تلمسان.

والمؤكد أنَّ جيش أبا المهاجر خلال حملته هذه، مرَّ بالمناطق الداخليَّة للمغرب الأوسط، ولم يكن مروره من جهة الساحل لأنَّ الروم كانوا يملكون سواحل بلاد المغرب، فيجب على أبا المهاجر أن يقوم بتجنب الدخول في مواجهة الأمازيغ والروم معًا.

وقد مرَّ على مدينة بسكرة ونواحيها، وحارب بعض الولاة ورؤساء القبائل في جهات قسنطينة وانتصر عليهم وذلك عام 59هـ/679م، واتخذ مدينة ميلة مركزًا لعملياته الحربيَّة وابتنى بها دار الإمارة وجعلها ملاصقة للجامع، ومكث بها سنتين، ثمَّ عاد إلى المغرب الأدنى سنة 61هـ/680م واستقرَّ بعاصمته الجديدة تاكيروان عامًا واحدً حتَّى عزل.

ونشير إلى أنَّ أبا المهاجر توغل في بلاد المغرب الأوسط ووصل حتَّى تلمسان إلى أنَّ فتح هذه البلاد لم يكن فتحًا مؤزرًا وحقيقيًا رغم مكوثه حوالي عامين بمدينة ميلة، لأنَّ جيوشه عادت إلى المغرب الأدنى ولم تستقر في المغرب الأوسط لتدعيم عملية الفتح لدى قبائل الأمازيغ جميعًا.

– فتوحات عقبة بن نافع (الولاية الثَّانيَّة) 62–64هـ/682–684م:

عندما تولى يزيد بن معاوية خلافة المسلمين، واستتب له الأمر باستقرار أوضاع الخلافة الأمويَّة بالمشرق ولو نسبيًا، فكر في بعث الفتوحات الإسلاميَّة في بلاد المغرب من جديد، فقام بعزل أبي المهاجر دينار وإعادة عقبة بن نافع لولاية المغرب وهذا في سنة 62هـ/682م.

فسارع عقبة بعد تعيِّينه هذا إلى إعادة بناء القيروان ونقل النَّاس إليها، كما قام بتوثيق أبي المهاجر دينار بالحديد، ثمَّ تجهز لمحاربة الروم ومواصلة الفتوحات الإسلاميَّة في بلاد المغرب، وقام بتجهيز حملة كبيرة ناحية المغرب الأوسط.

وانطلق في حملته هذه من قاعدة الفتح القيروان، بعد أن استخلف عليها زُهير بن قيس البلوي، بجيش قوامه خمسة عشر ألف جندي، لفتح بلاد المغرب الأوسط ومقاومة الروم البيزنطيِّين. فدخل بجيشه هذا إلى المغرب الأوسط والروم يهربون من طريقه يمينًا وشمالًا، إلى أن وصل إلى مدينة

باغاية شرق جبل الأوراس قرب مدينة خنشلة، ففتحها بعد أن حاصرها وقاتل الروم المتواجدين بها قتالًا شديدًا، وغنم منهم خيلًا كثيرًا لم يرَّ المسلمون أصلب منها ولا أسرع فهي نتاج جبل أوراس المطل عليها.

ومنها توجه إلى مدينة لمبيس (لمبيز) ففتحها بعد قتال عنيف مع الروم وأصاب بها غنائم كثيرة، ثمَّ ارتحل إلى بلاد الزاب بالتَّحديد إلى مدينة أذنة التي كان حولها ثلاثمائة قرية كلها عامرة، فلمَّا بلغ أهلها أنَّ عقبة قادمًا إليهم لجئوا إلى حصنهم، وهرب أغلبهم إلى الجبال والأماكن الوعرة، ونزل عقبة على وادٍ يبعد عن المدينة ثلاثة أميال، ولمَّا تجهز الروم في المساء نزلوا بدورهم بجيش ضخم أسفل الوادي، ولكن لم يحدث القتال بين الفريقين في الليل، وسهر الجيشين في تلك الليلة خوفًا من مباغتة أحدهم للأخر، فسمي ذلك الوادي "وادي سهر"، وعندما صلى عقبة الصبح أمر المسلمين بقتالهم، فحدثت معركة ضارية بينهما، انتهت بانتصار المسلمين والقضاء على الروم في بلاد الزاب.

ثمَّ ارتحل عقبة وجيشه إلى الجهة الغربيَّة للمغرب الأوسط، ونزل بمدينة تيهرت وقاتل فيها الروم والبربر معًا، وانتصر عليهم، ثمَّ واصل طريقه ناحية تلمسان ففتحها، ومنها اتجه إلى المغرب الأقصى فوصل طنجة، ثمَّ قاتل الأمازيغ في السوس الأدنى والأقصى.

وفي طريق عودته من المغرب الأقصى استشهد عقبة بن نافع وجنده وأبي المهاجر دينار سنة 64هـ/684م في منطقة تهودة بالقرب من بسكرة بالمغرب الأوسط.

– فتوحات زهير بن قيس البلوي:

استخلفه عقبة بن نافع على القيروان لمَّا خرج في حملته الكبرى على بلاد المغرب، ولكنه تراجع إلى برقة عندما استولى كسيلة على القيروان مرابطًا بها، ولمَّا تولى عبد الملك بن مروان الخلافة عيَّنه قائدًا لجيوش المسلمين في بلاد المغرب في حدود سنة 67هـ/686م، فجهز زهير جيش كبير قدره ستة آلاف جندي، وتوجه لقتال كسيلة في القيروان، ولكن هذا الأخير عسكر في مدينة ممس

جنوب القيروان، والتقى الجمعان هناك ودار قتال شديد بينهما، فانهزم في آخر المطاف كسيلة وقتل في المعركة، فانصرف زهير إلى القيروان فأقام بها مدة يسيرة.

وبعدما آمن النَّاس في القيروان ترك عسكرًا كثيرًا من أصحابه فيها، ورحل في جمع آخر قاصدًا مدينة برقة ليخلص أسرى المسلمين من أيدي الروم الذين أغاروا على برقة في حملة بحرية خرجت من صقلية مستغلين غياب زهير وجيشه الذي كان يقاتل كسيلة في القيروان، ولمَّا وصل برقة باشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب فتكاثر الروم عليه فقتلوا زهيرًا ومن معه في ساحل درنة ولم ينج منهم أحد، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية.

– فتوحات حسَّان بن النُّعمان الغساني:

تولى حسَّان بن النُّعمان قيادة جيش المسلمين في بلاد المغرب بعهد من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في حدود سنة 73هـ/692م، ويختلف المؤرخون كثيرًا في تاريخ تعيِّينه هذا، كما يختلفون في تاريخ بداية حملته العسكريَّة ضدَّ الروم بقرطاجنة والكاهنة بمنطقة الأوراس بالمغرب الأوسط، والأرجح أنَّه بدأ يحارب الروم بقرطاجنة سنة 73هـ/692م حيث قدم إليهم بجيش ضخم قوامه أربعين ألف جندي، فتمكن من القضاء عليهم وتبديد شملهم، وتخريب مدينتهم، ففروا ناحية مدينة باجة، وفرَّ بربر تلك المنطقة إلى ناحية بونة.

وفيما يخص مقاومته لزعيمة الأمازيغ بعد كسيلة، الكاهنة رئيسة قبيلة جراوة بناحية الأوراس بالمغرب الأوسط، فقد كان في نفس السنة، حيث عاد حسَّان بجيشه إلى القيروان بعد هزيمته للروم بقرطاجنة، لإعادة تنظيم صفوفه، ولمَّا جهز جيشه من جديد قال لأهل القيروان "دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقيَّة"، فدلوه على امرأة من الأمازيغ تدعى الكاهنة، فتجهز لحربها بجيش جرار، وكانت أوَّل حملة عسكرية لحسَّان على بلاد المغرب الأوسط.

ولمَّا سمعت الكاهنة بمقدمه جمعت جيش ضخم وعسكرت بمدينة باغاية، وأخرجت منها الروم ثمَّ هدمتها، ضنًا منها أنَّه يريد التَّحصن بها، أمَّا حسَّان فقد أكمل طريقه إلى المغرب الأوسط وعسكر

بوادي مسكيانة، فقيل له أنَّ الكاهنة قد أقبلت في عدد لا يحصيه إلَّا الله تعالى، فقال "دلوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه"، فدلوه على نهر أو واد نيني فزحفت إليه الكاهنة بجيوشها حتَّى أتت أسفل النهر، وحسَّان كان في أعلاه، وفي صباح الغد حدثت معركة مهولة بين الجيشين، حيث عظم البلاء وظنَّ المسلمون أنَّه الفناء، وانهزم حسَّان وجنده، في ضفاف هذا النهر الذي أصبح يدعى بنهر البلاء، كما سُمي وادي العَذَارَى، وانسحب ناحية القيروان وطاردته الكاهنة حتَّى خرج من مدينة قابس بالمغرب الأدنى، فالتجأ حسَّان إلى برقة، وبقي بها خمس سنين ينتظر المدَّد من الخلافة الأمويَّة بالمشرق، وخلالها بنا قصورًا سميت بقصور حسَّان.

وقد أسِرت الكاهنة في هذه المعركة ثمانين رجلًا من المسلمين، أطلقت سراحهم جميعًا ما عدا خالد بن يزيد العبسي الذي اتخذته والدًا لها. وملكت بذلك الكاهنة بلاد المغرب مدَّة خمس سنين، وقد ارتكبت خلال هذه المدَّة خطأً كبيرًا، حيث قامت بتحطيم وتخريب بلاد المغرب، ظنًا منها أنَّ المسلمين قدموا للاستيلاء على خيرات هذه البلاد، ويذكر ابن عذارى أنَّها قالت للأمازيغ: "إنَّ العرب (يُقصد هنا المسلمين ككل) إنَّما يطلبون من إفريقيَّة المدائن والذهب والفضَّة، ونحن إنَّما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلَّا خراب بلاد إفريقية كلها، حتَّى ييئس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدَّهر". فتضرَّر الأمازيغ من سياستها هذه، وسخطوا عليها، وبدأو في تغيِّير ولائهم لحسَّان والتَّخلي عن نصرتها، ويذكر الرقيق القيرواني أنَّه لجأ أهل مدن قفصة وقسطيلية ونفزاوة وحوالي ثلاثمائة رجل من النَّصارى يستغيثون إليه من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب، كما يذكر ابن عذارى أنَّه خرج يومئذٍ من المغرب خلق كثير من النَّصارى والأفارقة، مستغيثين ممَّا نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر جزر البحر الرومي.

وفي تلك الأثناء كان حسَّان مرابطًا بمدينة برقة، ويعد العدة للزحف على المغرب الأوسط من جديد والقضاء على الكاهنة، وقد عمد إلى إرسال رجل يثق به إلى خالد بن يزيد العبسي أسير الكاهنة، لكي يتقصى له أمرها وأحوال بلادها ورعيتها، وقد تمكن من الحصول على معلومات مهمَّة تتمثل بالخصوص في سخط الرعية من سياسة الكاهنة التي أثقلت كاهلهم.

ولمَّا وصله المدد من المشرق في حدود سنة 79هـ/698م وأصبحت الظروف كلها في صالحه وضدَّ الكاهنة، انطلق في حملة ثانية على المغرب الأوسط بجيش جرار مصمِّمًا على القضاء عليها وعندما علمت الكاهنة بمقدمه رحلت من جبل أوراس في خلق عظيم، وأوصت خالد بن يزيد العبسي أن يستأمن لولديها عند حسَّان وأن يُقبلا عليه، وتنبأت بمقتلها، ولكن قررت المقاومة حتَّى الموت.

ويذكر المالكي أنَّ الجمعان التقيا ناحية قابس، فانهزمت الكاهنة، وفرت مع من بقي من جندها إلى قلعة بُسْر لكي تتحصن بها ولكنها وجدتها مخربة، فانتقلت ناحية جبال الأوراس، ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبده، يحمل بين يديها على جمل، ولحقها جند حسان، فاقتتلا الجمعان وانهزمت الكاهنة وقتلت عند بئر سماها المسلمون "بئر الكاهنة".

أمَّا البربر فقد طلبوا الأمان من حسَّان، فأمنهم واشترط عليهم أن يعطوه من جميع قبائلهم اثنا عشر ألف فارس يكونون مع المسلمين مجاهدين، فأجابوه وأسلموا، فعقد لولدي الكاهنة بعد إسلامهما لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس من الأمازيغ، وانضموا للمجاهدين لاستكمال فتح بلاد المغرب، فانصرف حسَّان إلى القيروان بعدما تأكد من أنَّ الأمازيغ بناحية الأوراس حسن إسلامهم وذلك في شهر رمضان سنة 82هـ/أكتوبر 701م.

تمثل نهاية مقاومة الكاهنة بمنطقة الأوراس بالمغرب الأوسط، منعرجًا حاسمًا في عملية الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط، فقد دخلت هذه المنطقة بأسرها في الإسلام، حتَّى أصبح أكثر جيش حسَّان من الأمازيغ، وقد عمد هذا الأخير بعد أن استقامت له بلاد المغربين الأدنى والأوسط إلى تدوين الدواوين، وتنظيم الخراج، ووضع النظم الإداريَّة.

– فتوحات موسى بن نصير:

تولى موسى بن نصير ولاية المغرب في حدود سنة 83هـ/702م بعهد من والي مصر عبد العزيز بن مروان الذي قام بعزل حسان بن النعمان قيل لثأر شخصي بينهما، فقدم موسى إلى إفريقية

فخطب في الجنود الذين استغربوا لعزل قائدهم حسان الذي يكنون له التقدير والاحترام، فبرر في خطبته سبب العزل حيث قال بأنَّه بسبب كفره بالنعمة وتطاوله على أولي الأمر والنهي، وأمر موسى بصرف رواتب الجند ثلاث أضعاف ممَّا كانت عليه في عهد حسان لكي يستميلهم نحوه ويتناسوا ما حدث من عزل، وافتتح عهده بإفريقية بعزل نائب حسان ومساعديه وتغريمهم وتصفيدهم في الحديد وترحيلهم إلى المشرق.

وفيما يخص فتوحاته في المغرب فقد فتح أولًا قلعة زغوان ونواحيها، ثمَّ أكمل فتوحه وتوجه غربًا إلى المغرب الأوسط وشمل نشاطه قبائل هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة، ثمَّ اتجه إلى المغرب الأقصى وأخضع قبيلة أوربة، ثمَّ عاد إلى القيروان للاستعداد من جديد، فنضم جيشه وتوجه إلى المغرب الأقصى في حملة أخرى فأخضع السوس الأقصى، والمصامدة في جبال درن، كما فتح السوس الأدنى وعيّن واليًا عليها، ثمَّ فتح طنجة وولى عليها طارق بن زياد، ولم تبق غير مدينة سبتة التي استعصت على المسلمين لحصانتها الطبيعية والصناعية ومساعدة ملوك القوط لحاكمها يوليان.

وباستيلاء المسلمين على طنجة قاعدة المغرب الأقصى وتحويلها إلى رباط عسكري بقيادة طارق بن زياد الأمازيغي يكتمل فتح المغرب الأقصى ويعود موسى بن نصير إلى القيروان.